-٢-

مريض الرابعة فجراً

برودة يناير القارسة تجعلنى أتخذ من غرفة الطبيب الخاصة ملاذاً ..
ربما كنت أستلذ بكوب الينسون الدافئ الذى حمى جوفي البارد من هذا السقيع ..
وعلى أنغام كلاسيكية هادئة .. أقرأ في إحدى مراجع الجراحة العتيقة .. وبين كل معلومة ومعلومه أتية حينا ثم أرجع مرة أخرى إلى الأرض .. حيث الواقع الذي فرض عَليِّ تلك الحياة .. ويستمر العراك الأبدي ..
لم أعد أرى الشارع من النافذة .. فقط قطرات الندى المعبئ ببخار ماء الفجر البِكر حجبت عنّي رؤية كل شئ .. وكلما سَرىَ الدفء في جسدي كلما احسست أنني أريد أن أنام طويلًا .. ما أحلى الشتاء إن كان هناك دفء !
طرقتين على الباب افاقاني من تلك الترنيمة الهادئة ..
صوت مألوف ولكنه مزعج في كل مرة:
- إلحق يادكتور .. فيه حالة دخلت دلوقتي الإستقبال .. والظاهر عنده كرشِة نفس حادة.
أجيب على هذا الصوت بمنتهى الغيظ:
-وانتِ ليه ماتصلتيش عليّ على الرقم الداخلي.
فنظرت هي إلى الهاتف الداخلي المجاور لي .. ولم ترُد .. فقط لأن ليس هناك رداً .
نظرت إلى حيث نظرت هي فوجدت السماعة معلقة .. تداركت الأمر ونسيت أنني من فعل ذلك حتى لا يزعجني أحد !!
تباً لي نسيت وربما تناسيت أنني فى مستشفى وأنني في قسم الطوارئ وأنه من الممكن ان تحدث كارثة في أى لحظة .. يبدو أن الدفء الذي شعرت به

جعلني أحس أنني في بيتى .. في غرفة نومي .. مستلقى على فراشي ووسادتي . تركت الكتاب الذي كان بين يدي وهرولت إلى حيث الحالة العاجلة التي أتت في مثل هذا الوقت فيمثل هذا الجو الغير عادي .. ربما كان عليّ ووجب أيضاً أن أفعل ما في وسعي كي انقذ حياة هذا المسكين أو تلك المسكينة ..

هو شيخ عجوز .. ربما عبر السبعين خريفا بشهور .. ثمة وجه تملأه التعاجيد وصلعة خفيفة ربما كانت نتيجة شباب مزهر ومورق وجسم نحيل بطبيعة الحال .. يستند على عصا من العاج .. ربما كانت ما يميزه على الإطلاق ..أنفاس تتسارع .. تلهث تدافع عن نفسها من قبضة الموت الحديدية ..

ما لفت انتباهي هو ذلك الوجه .. ظهر لي مألوفا من أول وهلة .. ووقعت شيبته ووقاره في قلبي بأسرع ما يكون .. عينان ضيقتان عميقتان تنظران إليّ بمتعن وافتراس ..

يقف بجوار هذا الجسد شابة ربما ما بان أبيضا فيها هو ذلك الوجة واليدين .. لأنها ترتدى عباءة سوداء أنيقة .. ربما كانت ابنة الشيخ العجوز.

قمت بعملى كطبيب على اسرع ما يكون وأخذت تاريخ مرضي سريع عن حالته الصحية ووقعت الكشف الطبي المتفحص وقمت بوضعه على جهاز التنفس الصناعي حتى تنتهى تلك الأزمة الصدرية.

خرج هذا الرجل من عندي بعدما استراح وشكرني بكل امتنان .. شكراً ربما لا استحقه .. عيناه ما زالت تتفحصني بكل بقوة ولكني لم أبالى.

تكرر هذا الأمر إسبوع كامل .. كل ليلة في الرابعة فجراً .. يأتي هذا العجوز البائس إلى المستشفى بصحبة ابنته الشابة ولكن ليس مريضاً كأول مرة .. فقط كان يأتي لكى يراني!!

كان ينظر لي ثم ينظر إلى ابنته فتنظر هي إلى اسفل دون أن تنبث ببنت شفة .. كنت في قمة الدهشة أحاول ان استقرئ ما بين الكلمات ربما أحصل على مبتغاى فأرتاح ويهدأ بالي ولكن دون جدوى..

وفي مرة من المرات خرج من عندي كعادته بعدما قضى معي ساعة او يزيد

مثل كل ليلة .. ولم يأت بعد ذلك ..
مرت ثلاثة اشهر كاملة .. فلم أعتني بالأمر .. حتى فوجئت بتلك الشابة تأتي إلى المستشفى فى نفس الساعة التي كانت تأتي فيها قبل ذلك مع والدها..
جلست فسألتها عن والدها .. فقالت بأعين دامعة: مات.
ثم قالت أتدري لماذا كان ينظر لك كثيرا ؟
فقلت : لا.
فقالت واضعة عينها في عيني: فقط لأنك تُشبه كثيراً أخي الذي مات.

د/ اسماعيل حامد

obeikan.com